الفكـــــــر المعمـــــاري
عند ابن الأزرق

أ.د. بديع العابد

رئيس الجمعية الأردنية لتاريخ العلوم (سابقًا)
العميد الأسبق لكلية الهندسة_جامعة الإسراء
عمان – المملكة الأردنية الهاشمية

مُلَخّص

يتناول البحث الإسهام الفكري المعماري لابن الأزرق المتوفى (٨٩٦هـ/١٤٩٠م)، الذي نَهَجَ نَهْجَ ابن خلدون في عرضه للعمران البشري، وحدد أنواعه وركز على العمرانيين: البدوي والحضري، واعتبر الثاني غاية وهدفاً للأول، وبين أن غاية العمران الحضري هو التساكن في المدن، وعرض للسياسة المدنية وعرفها بأنها كيفية تدبير المنزل وتدبير المدينة، ثم عرض لأسس إدارة المدن وبين مؤسساتها المدنية وسلطاتها الإدارية والقضائية والرقابية والأمنية، كما عرض للموارد الاقتصادية بالمدن وتناول الصنائع وقسمها كابن خلدون إلى: عملية وعلمية، ضرورية وكمالية، بسيطة ومركبة، وبالجملة فإن إسهامه كان تكرارًا لمعظم إسهام ابن خلدون في الفكر المعماري.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٢٧ مايو ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ١٥ أغسطس ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

العمران البشري، العمران البدوي، العمران الحضري، التخطيط العمراني، الصنائع

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بديع العابد. "الفكر المعماري عند ابن الأزرق".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ١٤١ – ١٤٦ .

مُقَدِّمَة

يتناول البحث الإسهام الفكري المعماري لابن الأزرق المتوفى (٨٩٦هـ/١٤٩٠م)، والذي نَهَجَ نَهْجَ ابن خلدون في عرضه للعمران البشري، وحدد أنواعه وركز على العمرانيين: البدوي والحضري، واعتبر الثاني غاية وهدفاً للأول، وبين أن غاية العمران الحضري هو التساكن في المدن. وعرض للسياسة المدنية وعرفها بأنها كيفية تدبير المنزل وتدبير المدينة، ثم عرض لأسس إدارة المدن وبين مؤسساتها المدنية وسلطاتها الإدارية والقضائية والرقابية والأمنية. كما عرض للموارد الاقتصادية بالمدن وتناول الصنائع وقسمها كابن خلدون إلى: عملية وعلمية، ضرورية وكمالية، بسيطة ومركبة، وبالجملة فإن إسهامه كان تكرارًا لمعظم إسهام ابن خلدون في الفكر المعماري.

الأهداف والمنهجية

يهدف البحث إلى التعريف بإسهام ابن الأزرق في الفكر المعماري، وذلك في محاولة لتأصيل هذا الفكر واستكمال بنيته النظرية، ليتسنى توظيفه في الفكر المعماري المعاصر كإنجازات عربية إسلامية، وكإسهام حضاري عربي إسلامي.

ولتحقيق ذلك سأعرض لإسهام ابن الأزرق كما ورد في كتابه، **بدائع السلك في طبائع الملك**، ثم أعرض للمصادر التي استعان بها ابن الأزرق خاصة **مقدمة** ابن خلدون، وذلك في محاولة لبيان شيوع هذه المفاهيم وتداولها في الحضارة العربية الإسلامية، وتحديداً في التخطيط العمراني، ثم أقابل هذه المفاهيم بمثيلاتها المعاصرة، وذلك في محاولة لإعادة استعمالها وتداولها في الفكر المعماري المعاصر كإنجازات عربية إسلامية، لتأكيد حضورنا الحضاري العربي الإسلامي وتعزيز ثقة المعماريين والمخططين العرب بهذه الإنجازات. وسيحدد البحث مفهوم العمران ويركز على العمرانيين البدوي والحضري، وما يتضمنه الأخير من إنشاء للمدن، وأسس لاختيار مواقعها وموارد لاقتصادها، وصنائع لقوام حياة سكانها وطرق إدارتها وأسباب حفظ ديمومتها. وسيبين البحث أن إسهام ابن الأزرق في التخطيط العمراني (الذي أعقب إنجاز ابن

خلدون الذي ارتقى بعلم العمران وما يتضمنه من تخطيط عمراني إلى منظومة فكرية) يكتسب صفة التراكم المعرفي المعني إما: بتأكيد، أو تعزيز، أو تعديل الإسهامات السابقة، أو الإضافة إليها أو معارضتها ونفيها. وسأبدأ بالعمران.

العمران

العمران عند ابن الأزرق علم قديم وليس جديداً كما يدعي إبن خلدون، وهو علم معني بالملك والإمارة والسياسة وصلاح المعاش، وهو يحوي القواعد الحكمية والاعتبار من التجربة الإنسانية. وبالجملة فهو علم مختص بالاجتماع الإنساني أو السياسي. ويرى بعض القدماء من المفكرين المسلمين[١] أن ابن الأزرق قام بتلخيص مقدمة ابن خلدون وزاد عليها زيادة كبيرة نافعة.

ويرى محقق[٢] كتاب ابن الأزرق بأن علم العمران، كما عرض له ابن الأزرق، أقدم من ابن خلدون. وأن ابن الأزرق قد كشف عن المصادر التي اعتمد عليها ابن خلدون في تصنيفه لهذا العلم في المقدمة، ومنهم ابن المقفع، والجاحظ، والمسعودي، والغزالي، وابن حزم، والماوردي وغيرهم. على أن ما يعنيني هنا هو رسوخ هذا العلم في الحضارة العربية الإسلامية، وبصفة خاصة المباحث المتعلقة بالعمران الإنساني بقسميه: البدوي والحضري، وما يتضمناه من صنائع، الذي ارتقى به ابن خلدون إلى مصاف العلوم المستقلة، فجعل منه منظومة فكرية ذات بناء منطقي. ثم قام ابن الأزرق بتأكيده وتعزيزه ومعارضته أحياناً، شأن كل متأخر في تناول أعمال المتقدمين. كما أن ابن الأزرق اختلف مع ابن خلدون في مفهومه للتاريخ وصحح خطأ وقع به ابن خلدون، وسأعرض لهذا التباين ثم أعرض لأنواع العمران البدوي والحضري ولما تضمنه الأخير من مؤسسات مدنية وصنائع.

التاريخ

إن ابن الأزرق لم يعرض لبنية التاريخ كما عرض لها ابن خلدون، لكنه اختلف معه في اعتبار أن الدول لها أعمار طبيعة كالأشخاص، أي أن ابن الأزرق اختلف مع ابن خلدون في مفهوم التواصل التاريخي لفلسفة التاريخ الإسلامي. الذي يشكل مع باقي عناصر[٣] فلسفة التاريخ الإسلامي وهي: التفكر والتأمل، والدروس والعبر، والتنوع داخل الوحدة، أسس ومرتكزات دراسة علم العمران.

فابن الأزرق يصف ابن خلدون بأنه سلك مسلكًا غريبًا[٤] في تحديد أعمار الدول بثلاثة أجيال، أي بمائة وعشرين عامًا. وهذا الخطأ المنهجي الذي وقع فيه ابن خلدون بتحديده عمرًا للدول ومن ثَمَّ للمدن، وتشبيهها بالكائن الحي مخالفًا بذلك مفهوم التواصل التاريخي للحضارة العربية الإسلامية، وهذا يدل على وعي والتزام ابن الأزرق بفلسفة التاريخ الإسلامي، التي انطلق منها في تفسير العمران البشري، وتاريخ المدن، والمؤسسات المدنية والصنائع، التي سأعرض لها تباعًا فيما يلي من شرح وتحليل.

العمران البشري

لقد عرض ابن الأزرق للعمران البشري مباشرة دون أن يوضح المرحلتين اللتين[٥] سبقته وهما: مرحلة العمران الشامل أو الاستخلاف في الأرض، ومرحلة العمران الانتقائي والاستقرار البشري في الأرض بعد الطوفان. كما اكتفى ابن الأزرق بتعريف محدود للعمران البشري وهو أن الاجتماع الإنساني هو عمران العالم، وصنفه إلى قسمين: بدوي وحضري، وربط بين كل عمران والبيئة التي يقطنها وبين كيفية تعامله معها، وسأعرض لهذين العمرانيين تباعًا.

العمران البدوي

العمران البدوي هو جزء من الاجتماع الإنساني، وهو السكن في البوادي والقضاء وأطراف الرمال. وهذا العمران يقتصر على الضروري من أسباب الحياة، وهو متسع المسارح لتربية الحيوان والمزارع للغرس والزرع. وابن الأزرق يعرض لثلاثة أنواع من العمران[٦] البدوي طبقًا لأسباب المعاش: وأولها، الزراعة والمقام لأجلها ولو في الغيران والكهوف، وسكن المداشر والقرى، وهو حال البربر والأعاجم. وثانيهما، الشاوية وهم البدو الرحل الذين يعتمدون في معاشهم على الشاء والبقر، وسموا شاوية نسبة إلى الشاء، وهم لا يبعدون في القفار كالترك والصقالبة. وثالثهما، البدو الذين يعتمدون على الإبل والظعن، لعدم استغنائها في قوام حياتها عن المراعي وموارد المياه. ويصنفهم ابن الأزرق بأنهم الأشد وحشة ومنهم العرب.

وهنا يوضح ابن الأزرق تفاعل العمران البدوي مع البيئة بأنه مقتصر على الضروري، ويصف طبيعة توحشهم بأنها منافية للعمران، فهم دائمو الرحلة والتقلب، ولا يحتاجون إلا إلى الخشب والحجر لنصب الأثافي واتخاذ الأعمدة والأوتاد للخيام. فسكناهم الخيام وتفاعلهم مع البيئة تفاعل سلبي، ووضعهم الاجتماعي متدنٍ، لأنهم لا يعرفون الاستقرار ودوره في تعزيز القيم الحضارية. وبهذا يكون ابن الأزرق قد نهج منهج ابن خلدون في تقييم العمران البدوي بيئيًا. وهو في رأيي تقييم مجحف لأنه لم يتلمس الرؤيا البدوية للتفاعل مع البيئة. وهي رؤيا يعتبرها المسعودي[٧] (متوفى: ٣٤٦هـ/٩٥٧م) ايجابية وذات أبعاد وفوائد نفسية وصحية واجتماعية وسياسية. وإن التفاعل مع البيئة كان وليد تفكر وتأمل وإمعان نظر، من أصحاب الخبرة والتمييز، أي أنه تم بوعي وقصد وسابق تفكير، وليس تلبية لضرورة واستسلام لعجز أو قصور في التفكير.

كما يرى المسعودي خلافًا لابن خلدون وابن الأزرق أن تفاعل العمران البدوي مع البيئة كان موافقًا للشروط الصحية للسكان، كصلاح الأرض، واعتدال الهواء، وعدم توطن الأوبئة لابتعاد هذه المواقع عن المستنقعات. وإن تبديلهم لمواقع سكنهم يعود لهذه الأسباب ولعدم استنزاف البيئة واستهلاك مصادرها، كما إنه أحفظ للصحة ولمصادرهم الاقتصادية. وأهم من كل ما سبق هو أن

العمران البدوي لم يكن نتاج جهل البدو بالعمران الحضري، بل ترفعًا وتميزًا عن استكانة الحضر ودعتهم، وتفادياً لعيوب العمران الحضري البيئية وانعكاساتها الصحية السلبية على السكان.

وبهذا يتضح أن العمران البدوي له فلسفته القائمة على التفكر والتأمل[٨] والاستجابة لمتطلبات نفسية وبيئية وصحية واقتصادية، وليس نتاج عجز فكري أو استكانة نفسية أو انكفاء اجتماعي، أو الاكتفاء بما هو ضروري. وأن التفسير الاجتماعي الذي اقتبسه ابن الأزرق عن ابن خلدون هو تسطيح لمعاني هذا العمران وانتقاصًا من مقوماته الفكرية التي تستند إلى منهجية واعية في التفاعل مع البيئة. كما يوضح عدم صحة ادعاء ابن الأزرق الذي اقتبسه عن ابن خلدون أيضًا بأن طبيعة العرب منافية للبناء الذي هو أصل العمران. فالمسعودي[٩] بين أن العرب (البدو) على دراية ومعرفة بأحوال العمران الحضري وخصائص مبانيه الذي سيكون موضوعنا التالي.

العمران الحضري

العمران الحضري عند ابن الأزرق عملية تطورية عن مرحلة البداوة كما هو الحال عند ابن خلدون. لكن كلاهما تجاهل حقيقة إلمام البدو بالعمران الحضري، وترفعهم عنه للأسباب النفسية والبيئية التي وضحها المسعودي، واكتفيا بتفسيرهم الاجتماعي للعمران، وانكفاء البدو على الضروري من أسباب الحياة، وتطلع الحضر إلى الحاجي وغير الضروري فقط.

إن التفسير الاجتماعي للعمران الحضري سواء كان في الحضارة الواحدة، وهو مرحلة الانتقال من البداوة إلى الحضارة، أو التواصل بين الحضارات من خلال المضاهاة والتقليد، والتأثير والتأثر، يرتقي بالعمران الحضري ويعمل على تنوعه، وزيادة أهله إلى الحاجي وعدم اقتصارهم على الضروري.

فتكثر الصنائع وتزدهر الحياة الاقتصادية في المدن، وتزداد الحاجة إلى إنشائها، ويرى ابن الأزرق أن الدول أقدم من المدن والأمصار، وأن البناء واختطاط المنازل من منازع الحضارة.[١٠]

وأنه لا بد من تمصير الأمصار واختطاط المدن. كما يرى أن بقاء المدن ليس مشروطًا بزوال الدولة التي اختطتها، بل بانعدام تواصل المدينة مع محيطها العمراني،[١١] أي بانقطاع التعاون مع الظهير الاقتصادي للمدينة من سكان القرى والبوادي المحيطة بها، الذين يعتمدون على معاشهم بما يرفدون به المدينة من منتجات زراعية. فليس بالضرورة إذن أن يكون عمر المدينة هو عمر الدولة التي اختطتها كما يقول ابن خلدون، لأنه في الأعم الأغلب، أن دولة أخرى تنزل في المدينة التي اختطتها دولة سابقة، فتبقى المدينة عامرة وتزيد مبانيها، وتتسع خططها، وهذا الأمر ظاهر في المدن العربية كالقاهرة، ودمشق، وفاس، وبغداد وغيرها. فبقاء المدن وأعمارها إذن مرتبط بتواصل ارتباطها مع ظهيرها الاقتصادي وليس بعمر الدولة التي اختطتها.

وهنا يعارض ابن الأزرق ابن خلدون في مسألة أعمار المدن. ويرفض الأول رأي الثاني في أن الدول لها أعمار طبيعية[١٢] كالأشخاص تنعكس على أعمار المدن وازدهارها ونموها، على الرغم من أن ابن الأزرق يتفق مع ابن خلدون في شروط اختيار مواقع المدن، لكنه لا يعتبر العامل السياسي المحدد الأهم لأعمارها، بل العوامل الاقتصادية والبيئية والاجتماعية التي يجب أن تراعى في اختطاطها كما سأبين فيما يلي من عرض وتحليل.

التخطيط العمراني

إن اختطاط المدن عند ابن الأزرق هو قرار سياسي،[١٣] وهو نفس رأي ابن خلدون وهذا مفهوم قديم حصل في الإسلام وقبل الإسلام، وهو ما يحصل في عصرنا الحاضر. فتخطيط مكة[١٤] قبل الإسلام تم بقرار سياسي من قصي ابن كلاب، الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم، وإعادة تخطيط مركزها التقليدي أو التاريخي تم بقرار من الخليفة عمر بن الخطاب[١٥] (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م)، وإعادة تخطيطه مرة أخرى تم بقرار من الخليفة عثمان بن عفان[١٦] (٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٦م) وإعادة تخطيطه مرة ثالثة تم بقرار من الخليفة المهدي[١٧] (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م)، وإعادة تخططيه مرة رابعة تم بقرار من الدولة العثمانية[١٨]، وإعادة تخطيطه حاليًا تم بقرار من الحكومة السعودية. كما أن إنشاء مدن البصرة والكوفة والفسطاط تم بقرار سياسي من الخليفة عمر بن الخطاب، وكذلك باقي المدن العربية.

إن المدن بحاجة إلى تدبير، والتدبير يتطلب وجود مؤسسات إدارية وقضائية وأمنية ورقابية تعنى بأحوال المدينة للحفاظ على استقرارها وازدهارها وتواصل عمرانها. كما أن اختطاط المدن وتشييدها يتم وفقاً لرؤى في اختيار مواقعها وتأمين حاجة قاطنيها من الطعام والأمن وحفظ الصحة. وهذا لا يتم إلا بتفكير وإمعان نظر، أي بمنهجية التفكر والتأمل، التي تتضح في اختيار مواقع المدن الذي سيكون موضوعنا التالي.

اختيار مواقع المدن

إن اختيار مواقع المدن عند ابن الأزرق لا يختلف عنه عند ابن خلدون لكنه يستند إلى قاعدة شرعية في اختيار مواقع المدن وهي[١٩]: "دفع المضار وجلب المنافع"، التي صيغت فيما بعد بمجلة الأحكام العدلية كالتالي: "درء المفاسد أول من جلب المنافع". فموقع المدينة إذن يجب أن يدفع المضار ويجلب المنافع، ويتم ذلك بالأسباب التالية:[٢٠]

١- أن يكون موقع المدينة في مرتفع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر، حتى لا يوصل إليها الأعداء إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، وأن يدار عليها سور لتحصينها، وهذا يدفع المضار الأرضية عنها (أي وصول الأعداء إليها).

٢- أن يكون الموقع خاليًا من الآفات وبعيدًا عن الأمكنة المتعفنة والمروج الخبيثة، طيب الهواء وفسيح الأرجاء، وهذا يدفع المضار "السماوية"، أي البيئية، عنها.

٣- أن يكون الموقع على نهر أو به عيون عذبة، لأن الماء حاجة ضرورية ومرفقًا رئيسًا لسكان المدن، ويجب أن يكون عذبًا جاريًا وغير راكد للسلامة من الأمراض وهذا أيضًا يدفع المضار "السماوية" البيئية ويجلب المنافع الصحية والاقتصادية.

٤- أن يكون الموقع مجاورًا للأراضي الخصبة الصالحة للزراعة والمرعى، لتوفير الأقوات للسكان ولثروتهم الحيوانية، ولتوفير الخشب لمبانيهم والحطب لإبقاء النيران للاصطلاء والطبخ، وهذا جلب للمنافع.

٥- قرب الموقع من البحر لتسهيل المبادلات التجارية على أن يكون الموقع على جبل، أو قريب من التجمعات الحضرية، غير معزول ليسهل الدفاع عنه، وهذا جلب للمنافع الاقتصادية ودفع للمضار الأمنية.

وبالجملة فإن حضور ابن خلدون في اختيار مواقع المدن واضح كل الوضوح في كتاب ابن الأزرق[٢١]، حتى في تحامله على العرب ووصفهم بأنهم لم يراعوا فيها إلا المهم عندهم من مراعي الإبل، وما يصلح لها من الشجر والماء المالح، وأنهم، أي العرب، لم يراعوا الماء ولا المزارع والحطب.

وهذا تحامل وتعريض بالعرب، وجهل بالجغرافيا، فالبصرة تقع على شط العرب وهي من أغنى المناطق في العالم بزراعة النخيل. والكوفة تقع على نهر الفرات، والفسطاط تقع على نهر النيل، ومدينة الرقة تقع على نهر الفرات، وسر من رأى أو سامراء تقع على نهر دجلة. وهكذا في باقي المدن التي اختطها العرب في القرون الثلاث الأولى للهجرة، وهي عامرة بأهلها، وبعضها كان وما زال يشكل حضورًا حضاريًا مميزًا كالكوفة والبصرة، اللتان خرج منهما تقعيد اللغة العربية، ناهيك عن بغداد والقاهرة فهما من أشهر عواصم الدول في العالم.

هذه المدن وغيرها لم يسارع إليها الخراب فمكانتها الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية تتعزز باستمرار، وحضورها الحضاري متواصل بجهود سكانها العرب، فليس ثمة مبرر لهذا التحامل، سوى، ربما حالة الإحباط التي كان يعاني منها كل من ابن خلدون وابن الأزرق في نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الهجريين اللذان شهدا تراجع الدول الإسلامية في مصر وشمال أفريقيا وانهيارها في الأندلس.

أما زعم ابن الأزرق بأن اختيار المواقع عند العرب في بداية الإسلام كان محدود الرؤى ويفتقر إلى بعد النظر، فهو أيضا اتهام غير صحيح وينم عن تحامل وجهل في آن واحد. فرؤى عمر بن الخطاب التي تم وفقًا لها تخطيط مدن البصرة والكوفة والفسطاط، ما زالت تشكل نظريات فاعلة في التخطيط العمراني المعاصر لأنها تستند إلى اعتبارات: بيئية، وصحية، واقتصادية، وأمنية، شكلت الشروط التي عرض لها ابن الأزرق وقبله ابن خلدون في اختيار مواقع المدن. ومن هنا يتضح تحاملها على العرب. فهما يعرضان لأسباب وشروط سبقهم إليها عمر بن الخطاب والجغرافيون العرب التي عرضت لها في بحث سابق[٢٢]. وعليه؛ فإن تعريض كل من أبن الأزرق وابن خلدون بالعرب وبنظريات التخطيط العمراني العربية غير مبرر علميًا ولا عمرانيًا ولا حتى تاريخيًا.

وأن إسهامهما في التخطيط العمراني لا يقارن بإسهام عمر بن الخطاب، بل إن إسهامهما ليس إلا اجترار لنظريات عمر بن الخطاب الذي فعل دور المؤسسات السياسية والإدارية في المدن، خاصة مؤسسة القضاء التي وضح دورها في رسالته المشهورة لأبي موسى الأشعري واليه على البصرة، والتي اقتبسها ابن الأزرق[٢٣] وبنا عليها دور مؤسسة القضاء، وسأعرض فيما يلي لدور هذه المؤسسات.

المؤسسات السياسية والإدارية في المدينة

عرض ابن الأزرق لمؤسسات الدولة المختلفة كسلفه ابن خلدون، فتناول الخلافة وإمامة الصلاة، ومؤسسة القضاء، ومؤسسة الشرطة، ومؤسسة الاحتساب، ومؤسسات أخرى لا تعنيني في هذا البحث. وبين ابن الأزرق أن وظيفة الخليفة هي النيابة عن صاحب الشرع في أمرين[٢٤] هما: حفظ الدين وسياسة الدنيا. وبين أن سياسة الدنيا تعني رعاية الخليفة لمصالح الرعية، الأمر الذي أسفر عن فن تدبير المدن ونشوء المؤسسات لهذا الغرض، ومنها إمامة الصلاة[٢٥] التي لم يُفَصِّلُها ويبين انعكاساتها على التخطيط العمراني كما فعل ابن خلدون فلم يشر إلى مركزية المسجد الجامع في المدينة، ولا إلى دور مساجد المحال (الخطط) بها، ولم يبين العناصر الخدمية، كالساحات المكشوفة لربط الدواب، التي يجب إلحاقها بالمسجد المركزي وبمساجد المحال. وعليه فإن ابن الأزرق قد أغفل نقاطاً تأسيسية في التخطيط العمراني للمدن كالموضعة الحضرية للمسجد الجامع ولمساجد المحال، وعلاقاتها بشبكة المواصلات.

أما باقي المؤسسات كالقضاء[٢٦] والشرطة، والاحتساب، فلم يتعمق ابن الأزرق في عرضه لها كما فعل ابن خلدون، ولم يبين دورها الفاعل في تدبير المدينة وحسن إدارتها وبصفة خاصة لدور المحتسب، ولم يوضح أيضا حضورها في التخطيط العمراني للمدن، فكان عرضه من الناحية التخطيطية ناقصًا ومبتورًا، واكتفى بالتعريف بضرورة وجودها كمؤسسات تسهم في تدبير شؤون المدينة وإداراتها، وكذلك بالنسبة للعمران الشجري فقد اعتبره عنصر من عناصر الترف ومن توابع الحضارة، لكنه لم يركز على دوره الإيجابي في منظومة التخطيط العمراني، بل ركز على كونه يمثل الطور الذي يخشى منه هلاك المدينة وخرابها، وهو على

النقيض من ابن خلدون يرى أن سكان الحواضر (المدن) تتجنب زراعته لأنه مؤذن بخرابها، بينما يرى ابن خلدون أن سكان المدن يتنافسون في زراعته فيزهو منظر مدنهم، وتكثر المتنزهات العامة بها، فهو ينوه بدوره في منظومة التخطيط العمراني كعنصر جمالي وتكميلي. وبهذا أكون قد وصلت إلى آخر إسهامات ابن الأزرق في التخطيط العمراني وهو العنصر الاقتصادي المتمثل بالصنائع الذي سيكون موضوعنا التالي.

الصنائع

إن إسهام ابن الأزرق هو نقل مقتضب عن ابن خلدون. فيعرف الصنائع بأنها "ملكة في أمر عملي فكري"[٢٧]، فالعملي يكون جسمانيًا ومحسوسًا، وإنتاجه يتم بمنهجية التجربة والخطأ إلى أن يتم الوصول إلى منتج محكم الصنعة، فيتم بعد ذلك إنتاجه بمنهجية التكرار. أما الفكري فيتأتى بالتعليم والتعلم ويتحصل بإخراج الصورة من "القوة إلى الفعل"[٢٨] بالاستنباط الفكري على التدريج، أي بمنهجية التفكر والتأمل.

وقسم ابن الأزرق الصنائع تمامًا كما قسمها ابن خلدون إلى قسمين[٢٩] وهي: عملية وفكرية (علمية)، بسيطة ومركبة، ضرورية وغير ضرورية (كمالية)، شريفة وممتهنة. فالعملية والبسيطة والضرورية والشريفة معنية بأساسيات المعاش ومتطلباته الرئيسية، كالزراعة والحياكة، وإنتاجها لا يكون كاملاً ولا مستجادًا وإنما على قدر الضرورة. أما العمران الحضري فصناعته ترنوا إلى الكمالي، فيزداد فيها الإتقان والتأنق، وتزدهر الصناعات الترفيهية كالغناء والرقص وتربية الحيوانات والطيور وصناعة الأثاث وتنضيد الفرش وتزيين المباني... الخ.

وحقيقة الأمر؛ أن مصدر هذا التصنيف هو إخوان الصفا، فقد نقل عنهم ابن خلدون وأغفل الإشارة إليهم، بينما اعترف ابن الأزرق بأن مصدر معلوماته هو ابن خلدون. وإن كان الأخير قد توسع في عرضه للصناعات فعرض لصناعة البناء ولأعمال الطوبار ولتقانات البناء ولصناعة النجارة ولأعمال التنميق والتزويق في المباني، أما ابن الأزرق فقد اقتصر عرضه على الصناعات بصورة مجردة.

وبهذا أكون قد استكملت عرضي لإسهام ابن الأزرق في الفكر المعماري، الذي شمل مواضيع متعددة أكد فيها إسهام ابن خلدون النوعي في الفكر المعماري. ولقد تميز إسهام ابن الأزرق عن إسهام ابن خلدون بأنه كان ضمن رؤى فلسفة التاريخ الإسلامي فقد عارض ابن خلدون في أعمار الدول وتشبيهها بالكائن الحي، وتبنى مفهوم التواصل التاريخي خلافاً لابن خلدون. كما تميز ابن الأزرق عن ابن خلدون بأمانته العلمية فقد كشف عن مصادره بينما أخفاها ابن خلدون. وهذا يوضح أن العمران ليس علماً جديدًا[٣٠] كما ادعى ابن خلدون، بل هو علمٌ قديم. ابتدأه كمشروع فكري تحت التأسيس كلٍ من ابن المقفع والجاحظ والمسعودي وغيرهم، ناهيك عن جذوره في القرآن الكريم والسنة النبوية. ثم شكل فكره نخبة من العلماء مثل الغزالي والطرطوشي وابن الأكفاني وابن رضوان، ثم جاء ابن خلدون وتوسع في مباحثه وكون منه منظومة فكرية وظاهرة ثقافية دونها في مقدمته المشهورة، وهنا يتميز دوره عن غيره من العلماء الذين سبقوه بجمعه واستكمال بنيته النظرية.

خاتمة

تناول هذا البحث إسهام ابن الأزرق في الفكر المعماري العربي الإسلامي، فشمل العمران وبين أنه علم قديم معني بالملك والإمارة والسياسة وصلاح المعاش، وإنه علم يختص بالاجتماع الإنساني. ثم عرض للعمران البشري وقسمه إلى قسمين: بدوي وحضري. ثم عرض لكل منهما وبين أن تفاعلهم مع البيئة تفاعل سلبي مقتصر على الضروري. ثم عرض البحث لرأي المسعودي الذي بين النواحي الإيجابية للعمران البدوي سواء في تفاعله مع البيئة أو في ترفعه عن العمران الحضري لأسبابٍ نفسية وصحية وبيئية، ثم بين البحث أن العمران البدوي وظف منهجية التفكر والتأمل في اختيار مواقع سكناه، طبقاً للمسعودي.

ثم تناول البحث العمران الحضري الذي عرفه ابن الأزرق بأنه عملية تطورية عن مرحلة البداوة. وهي المرحلة التي يرتقي بها السكان من الضروري إلى الحاجي، ويعمدون فيها إلى المضاهاة والتقليد، والتأثير والتأثر، كما بين البحث ان الحياة الاقتصادية تزدهر في هذا وتكثر الصنائع، وتزداد الحاجة إلى إنشاء المدن. ثم بين البحث أن أعمار المدن ليس مربوطًا بالدولة التي أنشأتها بل بتواصل المدينة مع محيطها العمراني الذي يشكل ظهيرها الاقتصادي.

ثم انتقل البحث ليعرض لمفاهيم أساسية في التخطيط العمراني، فبين دور القرار السياسي في عملية التخطيط العمراني، ثم عرض البحث لشروط اختيار مواقع المدن: الأمنية، والبيئية، والصحية، والاقتصادية، والاجتماعية. ثم فند البحث تعريض ابن الأزرق وقبله ابن خلدون بشروط اختيار مواقع المدن في بداية الإسلام. ثم واصل البحث عرضه للتفسير الاجتماعي للعمران فبين دور المؤسسات السياسية والإدارية، في تدبير المدينة، ونوه بدور المؤسسة القضائية، ومؤسسة الشرطة، ومؤسسة الاحتساب كما نوه البحث بمفهوم ابن الأزرق لدور العمران الشجري في التخطيط العمراني.

ثم تناول البحث العرض المقتضب لابن الأزرق للصنائع وبين أن مصدره هو ابن خلدون وأن مصدر ابن خلدون هو إخوان الصفا. كما بين البحث أن الصنائع ترتكز على ثلاثة منهجيات: منهجية التجربة والخطأ، ثم منهجية التكرار للصنائع العملية، ومنهجية التفكر والتأمل للصنائع العلمية، ثم بين البحث تصور ابن الأزرق في عرضه للصنائع، وانه لم يتوسع بها كما فعل ابن خلدون.

ثم خلص البحث إلى أن ابن الأزرق عرض للعمران وللتخطيط العمراني ضمن رؤى فلسفة التاريخ الإسلامي خلافًا لابن خلدون

الذي شد عن مفهوم التواصل التاريخي لفلسفة التاريخ الإسلامي في عرضه للعمران وللتخطيط العمراني. كما بين البحث أن العمران ليس علماً جديداً كما أدعى ابن خلدون، بل هو علم قديم يمر بمراحل: البداية، والتشكل ثم التكوين والتصنيف الذي تم على يد ابن خلدون.

بقي أن أضيف أن إسهام ابن الأزرق جاء بعد تكوين علم العمران كمنظومة فكرية ضمن بنى وتراكيب ومفاهيم وأفكار تفرض حضورها على كل إسهام لاحق، فتحدد مساره وتحصره إما ضمن دائرة تنقيح الأفكار، أو الإضافة النوعية لها، أو تأكيدها وتكرارها، وإما معارضتها جزئيًا أو كليًا وطرح بدائل لها. وإسهام ابن الأزرق كان في أغلبه تكرارًا وتأكيدًا لابن خلدون ومن سبقوه، مع معارضة جزئية، ولكن نوعية، تتعلق بأعمار المدن كما بينت في متن البحث. فصحح ابن الأزرق مفهومًا أخطأ به ابن خلدون بتجاوزه على مفهوم التواصل التاريخي بفلسفة التاريخ الإسلامي، وإغفاله لدور العامل الاقتصادي في ازدهار المدن. وبهذا يكون ابن الأزرق قد وضع علم العمران والتخطيط العمراني ضمن رؤى فلسفة التاريخ الإسلامي وهذا ما يميز إسهامه الذي غلب عليه التكرار والتأكيد.

الهَوامِشُ:

(١) انظر: ابن الأزرق، (متوفى ٨٩٦هـ/١٤٩٠م)، **بدائع السلك في طبائع الملك**، جزءان، تحقيق الدكتور على سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام، جمهورية العراق، ١٩٧٧، ج١/٢٠-٢١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج١/٢٠-٢٢.

(٣) انظر: العابد، بديع، دكتور، (٢٠٠٩)، الفكر المعماري العربي الإسلامي – التفسير التاريخي، **مجلة المدينة العربية**، منظمة المدن العربية، الكويت، العدد ١٤٣، ص: ٣٤-٥٩.- العابد، بديع، دكتور (٢٠٠٧) الفكر المعماري عند ابن خلدون، **كتاب أبحاث المؤتمر ٢٣ لتاريخ العلوم عند العرب**، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، ص: ٤٥٣-٤٨٦.

(٤) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج٢/٢٧٢.

(5) *See*: Al-Abed, B. (1992), **Aspects of Arabic Islamic Architectural Discourse**, Published by The Technical University of Delft, The Netherland, P. 29.

(٦) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج١/٦٦.

(٧) انظر: المسعودي، (متوفى ٣٤٦هـ/٩٥٧)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ٤ أجزاء، الطبعة الرابعة، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١، ج٢/٦٩-٩٧.- العابد، بديع، **الفكر المعماري عند ابن خلدون**، مرجع سابق، ص: ٤٥٩-٤٦٠.

(٨) انظر: العابد، بديع، **الفكر المعماري عند ابن خلدون**، مرجع سابق، ص: ٤٦٠.

(٩) انظر: المسعودي، مرجع سابق، ج٢/٦٩-٩٧.

(١٠) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج٢/٢٧٣-٢٧٥.

(١١) انظر: المرجع السابق، ج٢/٢٧٤-٢٧٧.

(١٢) انظر: المرجع السابق، ج٢/٢٧٥.- العابد، بديع، **الفكر المعماري عند ابن خلدون**، مرجع سابق، ص: ٤٦١-٤٦٢.- ابن خلدون، **المقدمة**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، بدون تاريخ نشر، ص: ١٧٠، ٣٧٤.

(١٣) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج٢\٢٧٤.

(١٤) انظر: الأزرقي (متوفى ٢٥٠هـ/٨٦٤م)، **أخبار مكة وما جاء بها من الآثار**، جزءان، تحقيق رشدي ملحس، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٣م، ج٢/٢٥٣.- الحموي، ياقوت، (٦٢٥هـ/١٢٢٧م)، **معجم البلدان**، ٥ أجزاء، دار صادر، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، بيروت، ج٥/١٨٦.

(١٥) انظر: الأزرقي، مرجع سابق، ج٢/ ٦٩.- الزركشي، (٧٥٤-٧٩٤هـ/١٣٤٤-١٤٩٢م)، **اعلام الساجد بأحكام المساجد**، تحقيق أبو الوفا المراغي، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٢، ص: ٥٧.

(١٦) انظر: الأزرقي، مرجع سابق، ج٢/٦٩.

(١٧) انظر: المرجع السابق، ج٢/٧٤-٨١.

(١٨) انظر: دهيش، عبد اللطيف، دكتور، (١٤١٩هـ-١٩٩٩م)، **عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي**، منشورات الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة السعودية، الرياض، ص: ٧٣-٨٢.

(١٩) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج٢/٢٧٧.- ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ٣٤٧-٣٤٩.

(٢٠) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج٢/٢٧٧-٢٨٠.

(٢١) انظر: المرجع السابق، ج٢/٢٧٧-٢٧٩.

(٢٢) انظر: العابد، بديع، **الفكر المعماري عند ابن خلدون**، مرجع سابق.

(٢٣) انظر: ابن الأزرق، مرجع سابق، ج١/٢٥٥-٢٥٦.

(٢٤) انظر: المرجع السابق، ج١/٩٠-٩٧.

(٢٥) انظر: المرجع السابق، ج١/٢٣٦-٢٤٠.

(٢٦) انظر: المرجع السابق، ج١/٢٤٩-٢٦٨.

(٢٧) انظر: المرجع السابق، ج٢/٣٢٢.- ابن خلدون، **المقدمة**، ص: ٣٩٩-٤١١.

(٢٨) انظر: ابن الأزرق، ج٢/٣٤٤.- ابن خلدون، **المقدمة**، ص:٤٠٠.

(٢٩) انظر: ابن الأزرق، ج٢/٣٢٤-٣٢٥.- ابن خلدون، **المقدمة**، ص: ٤٠٠-٤٠١.

(٣٠) انظر: ابن خلدون، **المقدمة**، ص: ٣٨-٤١.- العابد، بديع، الفكر المعماري عند ابن خلدون، مرجع سابق، ص:٤٠٤.